

الأدب الشفهي بالمغرب: قراءة في المضمرات الثقافية

إبراهيم البوعبدلاوي*
جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، المملكة المغربية

Oral Literature in Morocco: A Reading in Cultural Contexts

Ibrahim Elbouabdellaoui*
Moulay Ismail University, Meknes, Morocco

*Corresponding author

ibrahim.elbouabdellaoui93@gmail.com

*المؤلف المراسل

تاريخ النشر: 2023-05-22

تاريخ القبول: 2023-05-12

تاريخ الاستلام: 2023-04-16

المخلص

يعد المغرب فضاء ثقافيا كبيرا، وخزاننا مهما لأنماط فنية وتراثية كثيرة؛ إن لكل منطقة من مناطقه مميزات خاصة جعلتها تتفرد وتختلف عن غيرها من المناطق، سواء على مستوى اللباس، أو العمارة، أو المأكّل، إلى غير ذلك من الأنماط التي تعبر عن الخصوصية والهوية. إن منطقة تافيلالت كانت من أهم المناطق تاريخيا في المغرب، فهي وريثة سجلماصة، تلك المدينة المندرسة التي شكلت عاصمة لأول دولة أقيمت في المغرب الأقصى. إن من أهم الأشياء التي تم نقلها من سجلماصة إلى تافيلالت ما يتعلق بالنظم المعمارية وكذا اللباس، إضافة إلى الآداب الشفهية. وسندرس في هذا المقال جانبين من هذه الآداب؛ يتعلق الأول بالحكاية الشعبية ذات المصدر المجهول، وكيف تعمل على تفسير الأحداث والوقائع الطبيعية التي استعصى تفسيرها على العقل البشري حينها. أما الجانب الثاني فهو المتمثل في الأهازيج الشعبية التي تغنى في الأعراس، ومختلف المضمرات الثقافية التي تختزنها والتي لا يلتفت إليها الحس المشترك؛ ذلك أن أهم وظيفة في التحليل السيميائي تتمثل في إعادة النظر في مختلف التصورات والأفكار التي يعتبرها الحس المشترك بمثابة مسلمات لم يعد يطرح السؤال حولها

الكلمات المفتاحية: الأدب الشفهي، السيميائيات، المغرب، الحكاية الشعبية

Aabstract

Morocco is a great cultural space and an important reservoir for many artistic and heritage styles; each of its regions has special characteristics that made it unique and different from other regions, whether at the level of dress, architecture, food, and other styles that express privacy and identity.

The Tafilalet region was one of the most historically important regions in Morocco, heir to Sijilmasa, a city that was the capital of the first state established in the Farthermost Maghreb. One of the most focal things that was transferred from Sijilmasa to Tafilalet was architectural systems, dress, as well as oral etiquette.

In this article, we will study two aspects of this literature; the first is related to the folk tale of unknown origin, and how it works to explain natural events and facts that were over the human mind at the time.

The second aspect is represented by the popular songs that are sung at weddings, and the various cultural embedded and stored contents and which the common sense

does not pay attention to, because the most important function of semiotic analysis is to reconsider the different perceptions and ideas that the common sense takes for granted so that the question no longer arises.

Keywords: oral literature, semiotics, Morocco, the folk tale

مقدمة:

يحب الإنسان الحكايات، يسعد لسماعها أو تأليفها، يظل يردد بعضها كأنها الحكاية الوحيدة الخالدة؛ ذاك كان شأن الأجداد مع أحفادهم. ربما النسيان هو الذي يدعوهم إلى ترديد حكايا بعينها، وربما تكون قد أثرت فيهم فيريدون أن يفهم أبناؤهم عنهم ما يقولونه بكثرة التردد. تعد "تافيلالت" موطنا للعفوية، لا يزال الشيوخ لحد الآن يحكي بعضهم لبعض قصصا عن زمن غابر ولّى، أو ربما يحكون عن زمن ليس له وجود إلا في ذاكرتهم أو ما تناقلته ألسنتهم. كان جدي واحدا من الذين أغرموا بالحكايات، حتى إنه لا يطق موطنا ولا يجلس في مكان إلا وسرد قصة ما؛ بعض تلك القصص من نسج خياله، وبعضها وقع بالفعل وأعاد سرده بطريقته الخاصة. يتفق كل من يعرفه على مهارته في السرد، وعلى جمالية أسلوبه وحلاوة كلامه. هو الآن غادرنا قبل زمن بعيد، لكن الكثير من حكاياته لازال يتردد صده في ذاكرتي.

• الراوي/المؤلف المجهول: الحكى وتفسير الوقائع الطبيعية

يسعى الإنسان لتفسير الكثير من الأشياء، يصل لذلك حيناً، ويخفق أحياناً. لعل من بين أكثر الأساليب شيوعاً لتقديم تفسير لقوى الطبيعة صياغة الأساطير؛ كان هذا الأمر شائعاً عند اليونان والرومان وقبلهم المصريين القدماء وغيرهم من الحضارات الوثنية. في المغرب كان هذا الأمر موجوداً حتى بعد دخول الإسلام، فالكثير من الأساطير ألقت حول ما يوجد في السماء وأعماق البحار والغابات البعيدة، وحتى نشأة المدن في هذه البلاد رافقها هذا الأمر، وقصة بناء مدينة فاس وبناء مدينة مراكش وغيرهما معروفة عند دارسي التاريخ والمهتمين بالعمارة. ليست الأساطير وحدها المحرك والمفسر لظواهر الطبيعة وما استعصى على العقل البشري، فالحكايات كان لها دور بارز في هذا الشأن. حين فتحت عيني على الدنيا وجدت أن تافيلالت كانت لا تخرج من جفاف حتى يتلقفها آخر، أدى ذلك إلى هجرة الكثير من أهلها، والآن عدد من قصورها صار أطلالا لا تعيش فيه غير الغربان. لا يمكن للإنسان أن يقف مكتوف الأيدي أمام ما يحصل، حتما سيفعل شيئاً؛ سيسرد، وسيؤلف قصصاً! وما نوعية تلك القصص؟

يجالس المرء شيوخ هاته المنطقة، فيحكون عن خيارات كثيرة كانت تعم كل أنحاءها، يقصون على الشباب بحسرة وأسى كبيرين كيف كانت عراجين النخيل تتدلى حتى توشك أن تسقط على الأرض، وكيف كان الزرع وأعداد الإبل التي كانت تجر المحاريث... أه، لو أن الزمن يرجع بهم هنيهة إلى الوراء! نقف نحن حائرين ومشدهين: هل نصدق ما يرددون أم نجعله كحكايات يمحو بعضها بعضاً؟! كبرت وقرأت شيئاً يسيراً من تاريخ المنطقة، علمت أن الشيوخ كانوا صادقين في مقالاتهم، وأن أرضهم كانت الأجمل والأغنى في بلاد المغرب: "وقد كانت الكثافة السكانية في أراضي السهوب في الكلتر المربع منخفضة جداً. بينما كانت في الواحات أعلى من أية منطقة أخرى على امتداد المغرب. ويسكن معظم سكان شبه الصحراء في الواحات طوال السنة".¹

إن الهجرة في تلك الأثناء كانت منعدمة، إذ يظل إنسان الواحات في أرضه، لأنها توفر له كل شيء يحتاجه، ولأنه يعيش في مكان يعد من الأماكن التي تعرف ازدهارا كبيراً، ولنستمع إلى هنري تيراس الذي يؤكد مقالة شيوخنا حين حل بالمنطقة: "وهي (الواحات) الأكثر كثافة سكانية، وغالباً الأكثر غنى في إفريقيا الشمالية".²

1 - روس إ.دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، تر: أحمد بوحسن، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، 2006، ص: 44.
2 - هنري تيراس، القصبات الأمازيغية بالأطلس والواحات المباتي الكبرى بالجنوب المغربي، تر: حسن أميلي، معهد الشارقة للتراث- الإمارات العربية المتحدة، ط: 1- 2019، ص-ص: 33-34.

ما مآل كل هذا الغنى وكل هذه الكثافة السكانية؟؟ إن شبها خطيرا حل ذات ليلة على المنطقة، وأهلها في غفلة من أمرهم، فأحالتها إلى أثر بعد عين. ولهذا يسترجع الشيوخ الزمن، فتقف الكلمات في حناجرهم، لا تعرف هل تغادر أم تبقى في الحلق كغصّة على ما ولى ولن يعود..

جدي واحد من الذين وجدوا تفسيرات لما كان يحدث أمامه، سبق أن وصفته بكثرة السرد، أجل.. بل وكان كثير الكلام أيضا. ذات مرة كنت مستندا إلى معصمه، كان الصيف حينها قد أخذ يفتت ما تبقى من إنسان الواحات. يتكى عادة في الظهيرة، يجد راحته في "السقيفة"، وأجد بدوري راحتي بجانبه. كنت الأثير من بين أحفاده الكثر، ولذلك كان لا يبخل على بما جادت به مخيلته، حكى لي:

"مرضت (المحنة)³ ذات مرة، وطال مرضها. كانت مستقرة في مكان بعيد، فقرّر أهل تافيلالت عيادتها والاطمئنان عليها. وجدوا الكثير من العوائق في طريقهم، لكنهم استمروا في المسير ومجابهة كل ما يلهم بهم. حين اقتربوا، كان هناك واد يفصلهم عن منزل هاته المسنة. كان البرق يقصف والرعد يمزجر، بينما السماء كان بابها الأكبر قد فتح فنزل من المطر ما لم يسبق أن نزل على أرض المغرب. ومع كل ذلك، نصبوا خيامهم جانب الوادي حتى صفت الأجواء وتحسنت الأوضاع. عندها، مروا إلى منزل مريضتهم، حكوا لها ما حل بهم من أجلاء؛ فأشفقت لحالهم، وأقسمت أن تذهب معهم وتستقر عندهم. وها هي الآن مأكثة بين ظهرانيهم، لا تغادر ديارهم أبدا".

هكذا فسر هو الأمور، وأعطاهما نفسا سرديا، بل وأحالتها لكون يتناقله أحفاده وغيرهم من الذين أعجبوا بالحكاية. إن الجفاف بالنسبة إليه لم يحلّ بنا هكذا من تلقاء ذاته، بل كابدنا من أجله وقطعنا في سبيله المفاوز والصعاب. ولهذا، فهو أمر لم يحلّ بين ظهرانيها على حين غفلة منا كما يرى مجايلوه من الشيوخ، وإنما كان حوله أمرا مرغوبا فيه.

إن شخصية "المحنة"، هنا، شخصية مجهولة؛ فسماتها، بالنسبة إلينا، لا تحدد طبيعتها، وهل هي ذات بعد شرير أم لا. وهذا بخلاف شخصية "التابعة" والتي هي أيضا عبارة عن امرأة. إن لها خصائص شريرة، فهي تتفقى أثر الصبيان وتصيبهم بعدد من الأمراض، بل يصل بها الأمر إلى أن تفتك بهم. وعليه، فإن نسج قصص وأساطير حول التابعة، وغيرها من القوى الخارقة، ما هو إلا محاولة تفسير لما لم يستطع الذهن الجماعي تفسيره؛ وهكذا نجد أن "التابعة" هي التي تتابع الصبيان من أسرة واحدة بحقدتها المسعور وتهلكهم الواحد بعد الآخر. فالمسلمون لم يكونوا إلا ليلاحظوا أن أطفال بعض العائلات يموتون الواحد بعد الآخر بفعل أمراض وراثية أو جنون عام أو التهاب السحايا أو التشنج، الخ. وهم يرمون باللائمة على "التابعة". ثم إن الاسم أصبح يعين كل المصائب التي تشكل سلسلة النحس المشؤوم⁴.

إن التفسير، في الحكاية موضوع دراستنا، لا يعزو ما حل بالمنطقة إلى مسائل دينية من قبيل المشيئة الإلهية، أو من قبيل سوء أعمالنا التي عوقبنا عليها.. وإنما أرجع السبب إلى سوء تقدير الأمور بالنسبة لأهل تافيلالت؛ فهم لم يعرفوا أنهم ذاهبون إلى حتفهم بأيديهم، وأن ما يفعلونه خاطئ.. ولقد حكى لي جدي هذه الحكاية بصيغة أخرى ذات ليلة من ليالي السمر والجلوس إلى مائدة الطعام المرصعة بديك مشوي وفراخ محشوة بالبيض..

ترى، هل كان جدي منشئ هذه الحكاية؟ لا أخفي قارئني سرا، فأنا أميل إلى هذا الأمر، فقد كان دائم السرد، حتى لم يعد يحول بينه وبين مفاتيحه شيء. لكن، عندما حكته لي جدي، بعد سنوات طويلة من وفاته، بطريقة مغايرة تسلل الشك إلي. وهكذا أجندني أمائل مثل هاته القصص بما كان يدور في ألبنا الشفهي العربي القديم، ذلك أن حكايات ألف ليلة وليلة تتأبى على الانقياد لأي مؤلف؛ إن مؤلفها يظل مجهولا.

إن جدي، شأنه شأن أغلب مؤلفي القصص الشفهية، لم يدر في خلده يوما أن ما قاله سيكتب وستصير له حياة أخرى. الشفاهة، عادة، مرادفة للزوال والمحو، بينما الكتابة مرادفة للدوام والاستمرارية؛ إن السرد كان دوما محطة لتأبيد اللحظة وتخليدها، لكن أن نضيف إليه الكتابة فهذا معناه التأكيد والإمعان في رغبة التأبيد. ويشير بول ريكور إلى التغيرات التي تطرأ على الملفوظ في انتقاله من الشفاهة إلى الكتابة وذلك في كتابه الخطاب وفائض المعنى. إن ريكور، وهو يناقش مقالة جاكوبسون حول علم اللغة والشعرية،

3 - المحنة عند أهل تافيلالت تعني الجفاف والجوع.. وهي مماثلة للتابعة أو أم الصبيان من حيث كونهما امرأتين طاعنتين في السن، ومن حيث كونهما ذواتي طبائع شريرة.. إن "التابعة" كان يرددتها المغاربة قديما، ولا تزال العامة تردد اسمها دون أن تعرف المراد منها.

4 - إدمون دوتي، السحر والدين في إفريقيا الشمالية، تر: فريد الزاهي، منشورات مرسوم- الرباط، 2008، ص:ص: 87-88.

ناقش عناصر الخطاب الستة، وبيّن التغيرات الحاصلة فيها أثناء التحول من الشفاهة إلى الكتابة، ورأى أن "أول ارتباط يطرأ عليه التغيير هو ارتباط الرسالة بالمتكلم(..) لقد تم نفس الموقف الحوارى بالكامل".⁵ يعد الموقف الحوارى أحد أهم الخصائص التي تميز مثل هذه الوضعيات، فالراوي لا يروي لشخص مفترض لا يعرفه، وإنما يوجه خطابه لمستمع يعرف عنه أشياء كثيرة؛ إن الراوي هنا، كما في أغلب حالات السرد الشفهي، بل والسرد العربي عامة، لا يحكي من تلقاء ذاته، وإنما يأتي ذلك بإيعاز من الآخر، نجد هذا الأمر في الليالي، في كليلة ودمنة، في المقامات، كما نجده في الإمتاع والمؤانسة. ولنأخذ نموذج المقامة الكوفية كحجة على ما قلناه:

"وأبو زيد مكب على أعمال يديه، حتى إذا استرفع ما لديه، قلت له أطرّفنا بغريبة من غرائب أسمارك، أو عجيبة من عجائب أسفارك، قال لقد بلوت من العجائب ما لم يره الراوون، ولا رواه الراوون، وإن من أعجبها ما عاينته الليلة قبيل انتيابكم، ومصيري إلى بابكم، فاستخبرناه عن طرفة مرآه، في مسرح مسراه، فقال إن مرامي الغربية، لفظتني إلى هذه التربة..."⁶

وهذا أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة يسلك النهج نفسه، فلا يبدأ بالحديث إلا بعد طلب من الوزير، وفي ذلك تأكيد على أن الكلام يجب أن يتأتى من مأخذه، ويراد من مطلبه، جاء في هذا الكتاب ما يلي: "ثم قال (الوزير) بلسانه الذليق، ولفظه الأنيق: قد سألت عنك مرات شيخنا أبا الوفاء، فذكر أنك مراعى لأمر البيمارستان من جهته (...). ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ولأتعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تردد في نفسي على مر الزمان لا أحصيها لك في هذا الوقت".⁷

إن العامة حينما لا تجد تفسيرات لقوى الطبيعة أو لما يحل بها من الأمراض أو غيرها تبدأ في نسج قصص وأساطير تضمن لها شيئاً من الراحة والاطمئنان؛ وهذا الأمر سبق أن حدث لمنطقتنا عندما كانت تسمى سجلماسة؛ فالعامة ينسبون سبب نزوب المياه بالمنطقة إلى السلطان الأكلأ أبي الحسن المريني، الشيء الذي أدى في النهاية إلى خراب المدينة العامرة وتفرق أهلها في القصور. والواقع أن الأمر بخلاف ذلك، خاصة حينما نقرأ كتب التاريخ من قبيل كتاب العبر لابن خلدون؛ ذلك أن أهل سجلماسة عندما كان أبو الحسن على خلاف كبير مع ابنه أبي عنان حول الحكم، ولجأ إليهم، خرجوا إليه خروجاً ينم عن التقدير والمحبة التي تكنها الرعية لسلطان عادل وطيب، على الرغم من أنه لم يعد سلطاناً، وأنه تم خلع من لدن ابنه. نقرأ في كتاب العبر ما يلي: "فلما أطلوا (أي أبو الحسن وعساكره) عليها (سجلماسة) وعان أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش، وخرج إليه العذارى من وراء ستورهن صاغية إليه، وإيثارا لإيالته، وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته".⁸

وهذا ما يظهر أن أبا الحسن (السلطان الأكلأ) كان عند عامة سجلماسة سلطاناً محبوباً، وليس شخصاً مهتماً أو محطماً كما تنتقل العامة الآن. ولعل السبب الذي يدفع الشيوخ الآن إلى ترديد مثل هذا الكلام ما كان بين السلطان أبي الحسن (السلطان الأكلأ) والسلطان أبي علي (السلطان الأبيض) من صراع، وكان مركز هذا الصراع هو سجلماسة، إذ كان أبو علي سلطاناً على هذه الناحية من المغرب. غير أن أبا الحسن لم يهدم أو يحطم سجلماسة حينها رغم تغلبه على أخيه.. وهنا يظهر الخلط الذي تتخبط فيه العامة. وهذا ما يؤكد الحسن الوزان الذي يرجع سبب خراب سجلماسة إلى الصراعات المتتالية بين أهلها لا غير.

1- الأبعاد الثقافية في الأدب الشفهي:

لا يخلو نص من أكوام ثقافية يعبر عنها، وهذا الأمر حاصل في الأدب الشفهي المغربي؛ فحينما نستمتع إلى الكلمات التي كان يتغنّى بها الإنسان الفيلالي في الأعراس فإننا نعرف الكثير من الأشياء عن هذا الإنسان؛ سواء من الناحية الفكرية أو الدينية أو الوجدانية أو الاجتماعية وغيرها من النواحي. خلال حفلات

⁵ - بول ريكور، الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - بيروت، ص: 60.

⁶ - الحريري، المقامات، ج: 1، المطبع الملكي المعمر - باريس - فرنسا، 1837، ص - ص: 53-54

⁷ - أبو حيان التوحيدي، ج: 1، مراجعة: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية - بيروت، 2011، ص: 43

⁸ - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيت الأفكار الدولية، السعودية ص: 1980.

الزفاف والأعراس نجد أن هذه المنطقة ربما تختلف اختلافاً كلياً أو جزئياً عن مناطق أخرى من بلاد المغرب، وحتى داخل هذا الربع من ربوع الوطن نلني أنفسنا إزاء اختلافات من مشيخة لأخرى.. تردد النساء ليلة أخذ العروس إلى منزل زوجها، أو ما يسمى عندنا بـ "الرواح"؛ أي مغادرة الأنثى:

"بايبي عليك يا دار باباها
نتوما ربيتوها وحننا اديناها"

إن هذين السطرين يحملان دلالات ثقافية، فهما يشيران إلى انتقال الأنثى من مكان إلى آخر، وما يعنيه من تحول في العادات والمزاج ومن تحول في الوضعية؛ الأنثى في منزل أبيها لا يزال في مكتبها فعل الأشياء التي تمارسها العازبات من لعب ولهو وعدم إتقان لفن الطبخ وغيرها؛ الأنثى في بيت "أهل زوجها" صارت مسؤولة عن كل فعل تفعله، بل وتحاسب حتى ما لم تفعله. إن هناك إشارة خفية إلى أن الانتقال أبدي، فهم يودعون الدار الأولى، ويفتحون داراً ثانية؛ تشير إلى ذلك كلمتان محورتان متطابقتان من حيث القصد: "باي باي" و"اديناها". كل كلمة لها موقعها الخاص، إنها لا تدل إلا بضمها إلى جانب أختها، ولهذا كانت هتان الكلمتان دالتين على المغادرة دون رجعة.

لا يمكن أن نترك اللهجة الدارجة تشتغل دون مقارنة لها بالعربية المعيار؛ فـ "اديناها" تعني أخذناها.. والأخذ يعني الحصول على الشيء، وأخذ بقلوب السامعين وعقولهم؛ تشير إلى السلب.. وإلى هذا المعنى الأخير تحيل "اديناها" في هذين السطرين. وما يؤكد ذلك هو مقابل السطرين في مناطق الوسط:

"أذاها وأذاها

والله ما خلاها"

ومعلوم أن هذه الطريقة في الصياغة تشير إلى السلب مع سبق إصرار. إن الفرح الذي يفرح به المغتصب بأخذ الشيء وسلبه بقوة يجعله يتمادى في تعداد الأشياء التي أخذها من المغتصب، وإن لم يجد فإنه يعدد ما فعله المغتصب من أجل ما أخذ منه. ولهذا، فقد عددوا ما فعلته دار الأب من أجل هذه الأنثى؛ فهم ربوها وسهروا على ذلك حتى كبرت وصارت زوجة. إن الفعل "رَبَّى" يقتضي من بين ما يقتضيه: الصلاح.. هم لم يكتفوا بأخذ بنت عادية، وإنما أخذوا بنتاً صالحة.. لكن السيناريو الذي يطرح نفسه دائماً في مثل هذه الأوضاع يتمثل في طرح التساؤلات عن: كيف استطاع الناس التغني ولمدد طويلة بأهازيج تحمل دلالات سلبية، وهم لا يلتفتون إلى مضمراتها؟ كيف يقبل أهل العروس أن تتخطف ابنتهم من بين أيديهم، ولو شعراء، دون أن يقوموا بأي رد فعل؟ وكيف يسمح أهل الزوج لأنفسهم بقول ما لا يجب قوله في مناسبة كهذه؟

ربما أكون على خطأ في تأويل وتفسير ما أنا بصدد الآن، فقد تعورني الموسوعة، فأنفلت إلى قراءة ضالة، لكن هذا ما تكشف عنه الكلمات في سياقها، وقد بسطت القول فيها. أنشئت هذه الأهازيج أول ما أنشئت من أجل أن تلقى شفاهة، وإخضاعها لمنطق الكتابة يعني إخراجها من البنية التي بنيت وفقها؛ إنها تماثل القول الشعري، فهما مصممان على أن يقلا شفاهة، وما الانتقال إلى الكتابة إلا تال لهذه المرحلة. عندما نقرأ كتاب غولدزيهر "الرسائل" وكذا "دراسات محمدية"، وكتاب إدمون دوتي "السحر والدين في إفريقيا الشمالية" ننتبه إلى أشياء كثيرة؛ فالكلمة في العربية ذات طبيعة سحرية، وأرقى أنواعها القول الشعري، والذي يعتمد قوافي وأسجاء؛ والقافية، كما ورد عند دوتي، مأخوذة من الفعل "قفي"، والذي يحمل معاني متعددة من بينها: جرح في القفا، وأهان شخصاً.⁹ والمعنى الأخير نجده متضمناً في مثل هذه الأهازيج، ولو بشكل مضمّر.

إن السبيل إلى تقوية القوة السحرية للكلمة كان متمثلاً في نطقها و"تردادها وابتكار الجناسات اللفظية والسجوع والقوافي والرومي المتشابهة. ومن ثم تأتي في العزائم والأدكار تلك السلسلة اللامتناهية من الأسماء المتشابهة فيما بينها والتي لا تختلف إلا بحرف، ولها القافية نفسها. ومن المرجح أن يكون أصل

⁹ - إدمون دوطي، السحر والدين في إفريقيا الشمالية، تر: فريد الزاهي، منشورا مرسوم - الرباط، 2008، ص: 82.

القوافي والأوزان آتيا من هنا، إذا كان الشعر، في الأصل، تقنية سحرية¹⁰ وعليه، فاستثمار الأهازيج للقوافي والأسجاع، بل وكل ما يميز القول الشعري، هو الذي أثمر وأعطى إمكانية عدم انتباه الإنسان إلى الكثير مما يقال، إنه يطرب فقط، بل ويتماهی مع الكلمات التي يتردد صداها في أذنه كل مرة. إن السياق العام الذي يجري فيه ترديد هذه الكلمات سياق احتفال، وسياق انتقال على مستويات متعددة. ومع ذلك، فهو يضم بنية فكرية ونفسية للإنسان المغربي عامة. ذلك أن مثل هذه الأهازيج لا تقتصر على تافيلالت وحدها، وإنما وجدنا لها مقابلا في الوسط، غير أن لهجة هؤلاء لهجة مختلفة، وقد نقول إن فيها مواجهة؛ فلئن كان أهل الزوج في الوسط يرددون:

اداهها واداهها

والله ما خلاها

فإن أهل الأنثى يرددون، وفي تحد لما يصدر عن تلك الجهة، فيقولون:

"اداتو واداتو"

والله ما خلّاتو"

وعليه، فإن المقارنة بين الهامش والمركز تنبئ عن اختلافات جوهرية؛ اختلافات على مستوى البنيات الثقافية والعادات وغيرها. فلئن كان بمقدور أهل البنت أن يردوا ب "أخ كلام" أهل الزوج، فإن ذلك غير ممكن بالنسبة للبيت الفيلالي. وهنا تظهر الهيمنة الذكورية حتى قبل بداية الزواج، في حين تظهر قيم التحدي والمواجهة والسلب المتبادل في أحضان أسر الوسط.

ولنعد إلى السياق الذي تجري فيه هذه الكلمات، فهو المحدد الأساس لدلالة الأشياء؛ إذ نلفي أن اللحظة هي لحظة فرح وحبور، لحظة ابتهاج باجتماع عائلتين واجتماع فردين.. الكل فرح سعيد، عدا والدي الأنثى يحسان وكأن ابنتهما تخطف من بين يديهما، إن مشاعرهما مختلطة، فهما لا يعرفان هل يسعدان لأن ابنتهما لها من الذكر الحسن عند الآخرين ما خول لها أن تبني بيتا، أم يبكيان لأن ابنتهما ستغادرهما مغادرة أشبه بالمغادرة الأبدية.. وهذا الرأي الأخير هو ما يؤكد الاسم الذي أعطي لليلة: الرواح؛ والذي يعني المغادرة والذهاب.

لكن مفاجآت تقف لنا بالمرصاد ونحن نحلل، فالقاموس كان دائما موجهها أساسيا لأي تأويل لا يسعى للخروج عن الجادة، ونحن لا نريد لقراءتنا هذه أن تكون ضالة على الرغم من وجود فلاسفة ونقاد يمتدحون مثل هذه القراءات. ذلك أن "الرواح" في اللغة يعني "الراحة". وهنا نجد أن تسمية الليلة آت من توقع ما يجب أن يكون؛ إذ الغرض الأسمى والأساس للزواج هو السكينة وخلق جو من المودة والرحمة، وهذا ما نجده متضمنا في القرآن الكريم والحديث الشريف. إن انتقاء اسم كهذا للتعبير عن هذه الليلة يشير إلى أن الوجدان الفيلالي يعرف ما الذي يتغياه المرء من الزواج، كما يفهم طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون متضمنة بين الأنثى والذكر داخل هذه المؤسسة التي تعد من أقدس المؤسسات داخل المجتمع والثقافة المغربيين.

خاتمة:

إن الثقافة المغربية قد أنتجت حكايات وأهازيج وغيرها من الأنماط الشفوية المندرجة بشكل عام ضمن مفهوم الأدب. وقد تميزت هذه الأنماط الفنية بارتكازها على بنيات فنية وثقافية تضم الكثير من القيم والأفكار والمعتقدات وغيرها؛ وهو ما لا يمكن معرفته إلا بعد الدراسة والتمحيص والاستناد إلى آليات علمية ومعرفية تسائل هذا المنتج في مختلف جوانبه. وقد أسعفتنا الدراسات الثقافية والسيمائية في الكشف عن مختلف هذه القيم التي تتستر وراء القول ووراء الكلمة السحرية الجميلة. وعموما، فإن أدبنا الشعبي

¹⁰ - نفسه، ص-ص: 81-82.

الشفهي لم يلق من الاهتمام والدراسة ما يستحق، وهنا يبرز دور المهتم بالثقافة المغربية وبتاريخها، إذ عليه تقع هذه المسؤولية، كما تقع على عاتق كل مهتم بالفن والأدب بشكل عام.

خلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج نجملها في النقاط التالية:

1. محبة الإنسان عامة للحكايات، سواء كانت هذه الحكايات واقعية أم تخيلية من نسج عقل مؤلفيها.
2. لجوء الإنسان إلى الحكايات لا يكون دائما بغرض التسلية وتزجية الوقت، وإنما هناك أهداف أخرى تختفي وراء الحديث المباشر.
3. من أهم الأشياء التي ناقشتها الحكاية الشعبية بمنطقة تافيلالت ما يتعلق بمحاولة تفسير ما كان يقع في الطبيعة، حيث كان يستعصي على الإنسان اللجوء إلى تحليل علمي ومنطقي لما كان يقع أمامه، فركن إلى القصة كملاذ يقيه ما هو فيه من حيرة وقلق.
4. إن الأهازيج الشعبية المغربية ظلت خزاناً لمختلف القيم الفكرية والثقافية والاجتماعية وحتى الوجدانية؛
5. إن الأعراس لم تكن تمر دون الوقوف على مثل هذه الأهازيج التي تعطينا صورة عن طبيعة العلاقة المرتقبة بين الزوجين.
6. إن اختيار الأسماء والأهازيج التي تنشد في الأعراس ومختلف المناسبات ليس مسألة اعتباطية، وإنما يخضع لانتقاء منظم يسائلها قبل إدراجها في بنية الثقافة.
7. إن التحليل السيميائي الثقافي هو الذي حوّل لنا إمكانية الكشف عن مختلف القيم التي أبرزناها في هذه الدراسة.
8. إن أهمية هذا التحليل تتمثل في مساءلته لمختلف الظواهر والسلوكيات والأفكار التي تظهر للوهلة الأولى كأشياء لا تحتمل المساءلة.

المراجع:

الكتب العربية:

1. أبو حيان التوحيدي، ج:1، مراجعة: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية- بيروت.
2. الحريري، المقامات، ج: 1، المطبع الملكي المعمر- باريز- فرنسا، 1837.
3. عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيت الأفكار الدولية، السعودية.

الكتب المترجمة:

4. إدمون دوطي، السحر والدين في إفريقيا الشمالية، تر: فريد الزاهي، منشورا مرسوم- الرباط، 2008.
5. بول ريكور، الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- بيروت.
6. هنري طيراس، القصص الأمازيغية بالأطلس والواحات المبانى الكبرى بالجنوب المغربي، تر: حسن أميلي، معهد الشارقة للتراث- الإمارات العربية المتحدة، ط:1- 2019.